تجليات قيم المواطنة في الشعر الشبابي الجزائري المعاصر

The manifestations of the values of citizenship in contemporary Algerian youth poetry

أ. د. سعد بولنوار
جامعة عمار ثليجي الأغواط؛ الجزائر
boulanouarsaad@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 25/ 05/ 2019 تاريخ القبول: 10/ 06/ 2019 تاريخ النشر: 27/ 06/ 2019

ملخص:

هذا بحث يحاول أن يلج إلى قيم المواطنة وتجلياتها من خلال التجارب الشعرية الجزائرية المعاصرة، وهذا التناول يأخذ في اعتباره قضايا عديدة تتصل بالنص الشعري من حيث التزامه بمبادئ مجتمعية محددة تخدم المواطنة بشكل كبير، وذلك باستقصاء الموضوعات ذات الوحدة والتنوع في قصائد شعرية لها هدف واضح، ورؤية شاملة بقضايا الإنسان في علاقاته المختلفة.

- ***الكلمات المفتاحية:*** *تجليات- قيم- المواطنة- الشعر- المعاصر-الجزائري.*

Abstract:

This research attempts to study the values and manifestations of citizenship through the experiences of contemporary Algerian poetry, this research takes into account many issues related to the poetic text in terms of its commitment to specific societal principles that serve citizenship significantly by exploring issues of unity and diversity in poetic poems with a clear goal, and a comprehensive vision of human issues in various relationships.

- ***Keywords:*** *Manifestations- values- citizenship- poetry- Algerian.*

- المواطنة والمقاومة:

عندما نتحدث عن مفهوم المواطنة بأبعاده الكثيرة والمختلفة، فإن هذا يجرنا بلا ريب في أن نتحدث أيضا عن مفهوم آخر وهو المقاومة، فالمواطنة والمقاومة مصطلحان يجدان بعدهما الأكيد في المجتمع الجزائري، وهذا راجع إلى ما عاشه المجتمع الجزائري من معاناة حقيقية في إثبات وجود الذات إبان الاحتلال الفرنسي، هذا الأخير الذي حاول أن يفرض قيما مغايرة تتنافى وطبيعة هوية المواطنة التي يؤمن بها الجزائري كفرد وكمجتمع، ويمكن أن نقول أن الرابط الذي يربط بين المفهومين المقاومة والمواطنة هو الثورة المجيدة باعتبارها نقطة تحول كبرى في إنجاز وبلورة قيم المواطنة، "فالبطولة والتضحية والإيثار ونكران الذات التي ضرب فيها الشعب الجزائري أروع الأمثال، هي في الواقع صور لأصالته ووطنيته وتعشقه للحرية وإبائه للقيم" (**محمد الصالح الصديق، 2009، ص68**) فالصراع هنا "محوره قضيتي الهوية والانتماء إذ تركزت جهود فرنسا محاولة فصل الجزائر عن الأمة العربية حتى لا تنتمي لهذه الأمة وإدماجها في أمة أخرى، كذلك فإن المقاومة الجزائرية في المقابل ركزت اهتمامها على إبراز الشخصية الوطنية وتحقيق الاستقلال لهذه الأمة وهذا هو مفهوم الهوية ثم الارتباط بالوطن العربي وهذا هو الانتماء" (**عبد الله الركيبي، 1882، ص49**)، وشعور بانتماء يحقق الحرية المدنية والاجتماعية والسياسية وهو ما يصطلح عليه بالمواطنة والتي هي: "علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة... والمواطنة تدل ضمنيا على مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات... وعلى العموم تسبغ على المواطن حقوقا سياسية مثل حق الانتخاب وتولي المناصب العامة" (**مصطفى محسن، 2004، ص244**) وهذا في عموم القول.

وحينما نتساءل عن تجليات قيم المواطنة في الأدب والشعر، فإننا نجد محمد الصالح خرفي يقول متتبعا المواطنة والوطن في أصولها عند الأدباء العرب القدامى: "الوطن هو محور النص الشعري, المبتدأ والمنتهى بل إن الشاعر هو الوطن يعبر بلسانه عنه ويحلم مكانه؛ ويؤسس

له وفق رؤيته الفكرية والسياسية ويأخذ منه ويعطيه. والراجع إلى المتن الشعري العربي القديم يلحظ أن الوطن لم يكن موجودا هذا المفهوم المتعارف عليه اليوم حيث كان المكان/الوطن مفردا بصيغة الجمع يهيج الأشواق لما فيه من ذكريات" (**خرفي محمد الصالح، 2007، ص267**)، و "لعلّ حب الإنسان للمكان الّذي ينشأ فيه ويترعرع في جنباته فطرةٍ فطر الله النّاس عليها، تحقيقًا لعلّة تعمير الكون، وقد كان الإنسان ولا يزال لصيقا بوطنه نازعًا إليه مقيمًا على حبّه؛ ويبدو أنّ الشّعوب كلما ظلّت قريبة بحال البدائيّة والبساطة في عيشها وتفكيرها كانت أشدّ التصاقًا بالوطن والأرض وهذا ما تنطق به أشعار الجاهليّين؛ إذ شكّل الحنين إلى المكان في شعرهم ظاهرة بارزة" (**إبراهيم عبد الفتاح حسن فراش، 2017، ص13**).

- إشكالية التعبير عن مضامين المواطنة:

وحينما تكلمنا عن قضية مقاومة الاحتلال الفرنسي فلابد أن نتعرض إلى مشكل كبير حاول النيل من هوية الجزائريين في ذلك الوقت، وهو مشكلة التعبير باللغات الوطنية، فكثير من الكتاب والأدباء كتبوا أدبهم باللغة الفرنسية واستعملوها كبديل مفروض عليهم لعدم تمكنهم من الإلمام باللغة العربية ويقول مالك حداد في شأن تعبيره بالفرنسية التي أصبح سجينها: "لقد أراد الاستعمار ذلك، لقد أراد الاستعمار أن يكون عندي هذا النقص، لا أستطيع أن أعبر بلغتي" (**سعاد محمد خضر، 1967، ص205**)، وفي هذا الصدد أيضا يقول مولود معمري: "كنت أتألم لكوني أحيا في بيئة لا صوت لها يعبر عما يختلج في نفسها من أفكار وعواطف خاصة بها دون سواها... تلقيت دروسا باللغة الفرنسية، وأنا أتوق إلى إتقانها واكتساب ملكتها، حتى أتمكن من التصرف فيها بدقة وأناقة، وكان لابد من عقبات ومصاعب لعدم وجود انسجام بين هذه اللغة وطريقتي الخاصة في التعبير، وكان لابد لي إذن أن أقسو على إحداهما" (أنور الجندي، 1965، 228)، وهذا مولود فرعون صاحب المقولة الشهيرة: أكتب بالفرنسية، وأتكلم بالفرنسية، لأقول للفرنسيين: إني لست فرنسيا.

- المواطنة في النقد الحديث:

كان النقاد في مرحلة الستينات والسبعينات يدرسون هذا الجانب المتعلق بالمواطنة في إطار مفهوم محدد وهو الوحدة والتنوع في الأدب داخل المؤسسة الاجتماعية، يقول عبد العزيز شرف: " يُنطلق من فهم الأدب على اعتبار أنه مؤسسة اجتماعية، أداته اللغة وهي من خلق المجتمع. والوسائل الأدبية التقليدية، كالرمزية والعروض اجتماعية في صميم طبيعتها. إنها أعراف وأصول لا يمكن أن تبزغ إلا في مجتمع" (**عبد العزيز شرف، 1991، ص10**)، ولا يكون هذا إلا عبر مفهوم الالتزام الذي هو "حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير خارجيا عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار" (**جبور عبد النور، 1984، ص31**).

ولعلنا نجد أن مفهوم الالتزام هذا يتفق مع مفهوم المواطنة عبر الطرح المذكور و"الالتزام لا يعد بدعة في الشعر، ولا يتعارض مع نزعتي الفكر والجمال فيه طالما ظل متحررا من قيود الانغلاق وهيمنة السلطة، إذ ليس من المعقول أن يبقى الأديب أو الشاعر سابحا في الخيال، غارقا في ذاته دون أن ينصهر في واقع مجتمعه وأمته، إن الأدب وإن كان صاحبه يعبر عن ذاتيته، فلابد أن يكون في الوقت نفسه مرتبطا بمن حوله ينبض وجدانه بهمومهم ويخفق قلبه بآمالهم إنه الجانب الإيجابي من علاقة متبادلة بين الشاعر والمجتمع" (**إبراهيم لقان، 2015، ص80**).

و "من هؤلاء الشعراء الشاعر محمد العيد آل خليفة الذي كان له موقف واضح من الاستعمار ومن الثورة فقد تنبأ بحدوثها بوقت قريب كما تنبأ بإشراق فجر الثورة من الأوراس فيبعث تنبآته شعرا للشعب الجزائري في قصيدته رعد البشائر التي ألقاها بباتنة على إثر الدروس التي قام بها البشير الإبراهيمي يقول فيها:

بباتنة رعد البشائر لعلعا فأطرب أوراسا بها والشلعلعا

وجادت غيوث البر كل رحابها فجادت وعادت للمبرات مرتعا

وأخصبت الآمال فيها وأينعت كما أخصب الروض الجديب وأينعا"

(غنية غرابي، 2018، ص191)

ونجد مفدي زكريا شاعر الثورة يقول ولا تعقيب لقوله:

وقل للجزائر وأصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابر ساجدين وركعا

إن الجزائر في الوجود رسالة الشعب قررها وربك وقعا

إن الجزائر قطعة قدسية في الكون لحنها الرصاص ووقعا

و "الحركة الشعرية واتجاهاتها الجديدة في الجزائر جعلت من الرمز الغامض دلالات موحية معبرة عن قضايا الوطن والإنسان، مبتعدة عن الغموض مهتمة بإيصال الفكرة أكثر من ابتداعها لنماذج متعصية الفهم .. ولعل هذا ما عبر عنه باقتدار أبو القاسم سعد الله في قصيدته طريقي، إذ يقول :

يا رفيقي،

لا تلمني عن مروقي،

إذ أنا اخترت طريقي،

فطريقي كالحياة،

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف الأرياح وحشي النضال

صاحب الشكوى وعربيد الحيال" (أمينة بلهاشمي، 2010،ص ص15-16)

فطريق الشاعر صعب عاصف الأرياح وحشي النضال، يشق طريقه إلى المواطنة الحقيقية، بحيث أن منالها ليس بالهين ولابد من الاختيار للوصول إليها.

- المواطنة في الشعر الجزائري المعاصر:

هذا ونجد من التجارب الشعرية المعاصرة والثرية تجربة الشاعر عز الدين ميهوبي، و تجربة عز الدين ميهوبي تجربة غنية جدا بالمواطنية، فعنده "الوطن.. يتحول من ذلك الجريح الذي يمكن أن يؤول إلى رمز للحماية وأكثر من ذلك الانتماء، وبناء على ذلك فلقد استغل الشاعر الوطن بجميع صيغه وحالاته التي يمكن أن يكون عليها، وهي علامة لغوية قوية لأن لها القدرة على الظهور بمظهر مختلف بحسب السياق الذي ترد فيه. وفي السياق نفسه، يقول:

لم أجد غير أغنية من رحيق الصباح

الذي لا يعود

لم أجد غير هذا المسافر دون حدود

لم أجد غير هذا التراب الذي ينهش الحزن

أطرافه والفتن

يسأل الناس قبرا وفاتحة للوطن

وفي مقطع آخر:

بلادي التي علمتني الكتابة بالدم

في أضلع الشهداء

أغلقت بابها

أنكرت – لحظة الموت- أحبابها

وانتمت للدماء

ألبست ناسها سترة من عزاء

لم تجد وطنا غير صمت الزمن

صرخت ملء فيها: أعيدوه لي..

أو أعدو لقلبي الكفن؟

في هذه الصورة تتجلى أغلب مظاهر التشخيص حيث يتحول الوطن إلى إنسان، يعلم ويغلق الأبواب وينكر (علمتني، أغلقت، أنكرت، ألبست، صرخت...) إنها علامات تشخيصية مباشرة أراد بها الشاعر تصوير الوطن في صورة إنسان، إنه عالم حي تتقاسم فيه الأدوار مجموعة (الأفعال)، تؤدي دلالات مختلفة" (**حفيظة بن مزغنة، 2005، ص ص81-82**).

كذلك من التجارب الشعرية الفذة في التعلق بالوطن والكتابة فيه نجد الشاعر الفحل عثمان لوصيف –رحمه الله- الذي يقول: "في الحقيقة أشعر-دائما- أن حب الوطن واجب مقدس، على كل الوطن بشكل عام أحببت مدنه التي فرد حر أن يتحلى به، ولما كنت أحب عشت فيها بعض التجارب بشكل خاص، ومن هنا كنت أتفحص خصائص كل مدينة، وأحاول صوغها في قالب شعري فأنشئ بعضا من و شعر المدن، فأحدثك في الجلفة عن المراعي والشياه، وأحدثك في تيزي وزو عن غابات الزيتون، وأحدثك في باتنة عن القمم الأوراسية، وأحدثك في وهران عن الشواطئ الساحلية... وهكذا" (**لزهر فارس، 2005،ص120**)، والوعي الحقيقي هو هذا الوعي الذي ينتج "شعراء مجددون باحثون بطموح عن وعي أصيل غائب، أو هم المشكلون للكلمة في ظل البحث الجاهد من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، أو صياغة الفن صياغة سليمة تستجيب لنداء الوطن الذي يجب أن يتشكل وفق ميزان التراث الإيجابي في تناصه مع الحداثي المفيد" (**عمر أحمد بوقرورة، 2004،ص150**)، والشاعر عثمان لوصيف "استخدام المرأة معادلا موضوعيا للوطن يعد ظاهرة رمزية يلتف حولها الشعراء الجزائريون المعاصرون، إلا أن عثمان

عندما يمثِل الوطن أو جزءا منه كمدينة من المدن بالمرأة يغرق ويوغل في تصوير العناصر المحسوسة للأنثى، ومن وراء هذا التصوير المرئي يكشف المعاني اللامرئية لوطنيته العالية. يقول في المقطع الخامس من قصيدة (وهران):

أنت هسهسة النهد تحت ارتفاف القميص المخدر

تغتغة الخصر كسره الغنج،

تنغيمة الخطوات الرشيقة فوق الرصيف

رفيف الجفون مكحلة بالجنون

وهفهفة الخصلات الشذيه" (**لزهر فارس، 2005،ص63**).

والشاعر "الأخضر فلوس في حقول البنفسج التي رأت النور في سنة **1990**، فقد تنبأ بحبيبته حين دخولها هذه الحقول بتجاوز القطار كثيرا من المحطات دون أن يكون على يقين من النزول في إحداها وإن كان عارفا بجدوى حضوره في ذات الوقت معها بين تلك الحقول مستفسرا عن أي حقل بنفسجي سيجمعهما؟ هذا اللقاء الذي عكر صفوه بومه ناعقة في إشارة إلى المتشدقين بأمجاد لم يكونوا طرفا في إنجازها وأفادوا من خيرات الوطن فاستباحوا في شره مستقبل أطفال سيكبرون فليتهم كانوا رجال مرة في العمر فيكبرون بالوطن، ويكبر الوطن بهم :

خلا لك الجو فبيضي وانعقي

لم نستطع..،

لأننا ننصب في دروبنا شباك!،

وأنت بيننا ترفرفين في الظلام،

ومرت الأيام.. والأعوام،

ولم نزل ندير أعينا تخون بعضها،

رمداء.. لا تراك!"

يا ليتنا نضيء بالأمجاد هذا القبر،

يا ليتنا نموت دونما ثمن!،

يا ليتنا كنا رجال مرة في العمر" (**أمينة بلهاشمي، 2010، ص108**)

ومن هذا المعطى "يتبين أنّ الرمز يتكاثف ليعبر عن أبعاد دلالية هامة في تجربة كل مبدع، فحنين الشاعر إلى أرض الوطن وعشقه لها مجسدًا في شخصيته وفي تجربته الإبداعية الخاصة، ولذلك كان الحنين إلى الوطن معبرًا عن الاشتياق إلى الماضي وخاصاً في وجدان الشاعر المحتشد بالذكريات والتأملات؛ أي حضور الماضي وإحيائه في الحاضر" (**بن جبارة سعدية ماجدة، 2015،ص93**)، ونستكشف تبعا لهذا تلك الروح المواطنية التي يملكها الشعراء الجزائريون المعاصرون.

- قائمة المصادر والمراجع:

1. عبد الفتاح حسن فراش، إبراهيم. (2017). **رثاء النفس في الشعر الجاهلي**. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الخليل. فلسطين.
2. لقان، إبراهيم. (2015). **قضايا الالتزام في الشعر الجزائري الحديث محمد العيد آل خليفة أنموذجا**. مجلة العلوم الإنسانية. المجلد 44. العدد 02. جامعة قسنطينة. الجزائر.
3. بلهاشمي، أمينة. (2010). **الرمز في الأدب الجزائري الحديث**. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة تلمسان. الجزائر.
4. الجندي، أنور. (1965). **الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا**. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة.
5. بن جبارة، سعدية ماجدة. (2015). **جمالية الأثر في الشعر الجزائري المعاصر شعر عبد القادر رابحي أنموذجا**. أطروحة دكتوراه غير منشورة. جامعة سيدي بلعباس. الجزائر.
6. جبور، عبد النور. (1984). **المعجم الأدبي**. دار العلم للملايين. ط2. بيروت. لبنان.
7. بن مزغنة، حفيظة. (2005). **الصورة الفنية في شعر عزالدين ميهوبي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بسكرة، 2005.
8. خرفي، محمد الصالح. (2007). **الوطن ودلالاته في الشعر الجزائري المعاصر**. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. المجلد 22. العدد 01. جامعة قسنطينة. الجزائر.
9. محمد خضر ، سعاد. (1967). **الأدب الجزائري المعاصر**. منشورات المكتبة العصرية. بيروت.
10. شرف، عبد العزيز . (1991). **المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر**. دار الجيل. ط1. بيروت.
11. الركيبي، عبد الله. (1982). **الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى**. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
12. بوقرورة، عمر أحمد. (2004). **دراسات في الشّعر الجزائري المعاصر**. دار الهدى. عين مليلة. الجزائر.

13. غرابي، غنية. (2018). **صدى الثورة التحريرية في الشعر الجزائري الحديث**. حوليات الآداب واللغات. المجلد 05. العدد 12. جامعة المسيلة. الجزائر.

14. لزهر، فارس. (2005). **الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف**. مذكرة ماجستير غير منشورة. جامعة قسنطينة. الجزائر.

15. الصديق، محمد الصالح. (2009). **أيام خالدة في حياة الجزائر**. موفم للنشر. الجزائر.

16. محسن، مصطفى. (2004). **إشكالية التربية على المواطنة وحقوق الإنسان بين الفضاء المؤسسي والمحيط الاجتماعي**. مجلة عالم التربية. العدد15. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. الجزائر.